الدور الاجتماعي والثقافي للأقليات المذهبية والعقدية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين
(الأحناف والمعتزلة نموذجا)*

د. إسماعيل سامعي
جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة

لا ريب أن دراسة موضوع الأقليات يكتسي صبغة خاصة لاسيما في عصرنا، وفي ضوء المتغيرات الدولية حيث تتخذ ـــ الأقليات ـــ كذريعة لتقويض المجتمعات من الداخل بإثارة النعرات والفتن، كما يستخدمها الأقوياء كمنفذ لتحقيق مصالحهم، وقضية من قضايا حقوق الإنسان التي تعد إحدى المرتكزات الأساسية في بناء الأمم المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

في البداية لابد من الوقوف عند مصطلح "الأقلية"، وطرح السؤالين التاليين: هل الأقلية مفهوم أصيل في تراثنا الحضاري العربي الإسلامي أم دخيل عليه ؟ وهل طرحت كقضية في الثقافة الإسلامية؟

فالقلة في اللغة العربية خلاف الكثرة ، ويستعمل لفظ القلة ـــ يقل ـــ في نفي أصل الشيء كقوله تعالى:" وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ"[1]، والقلة تعني الذل والذِّلة، كما تعني الربا كقوله تعالى: " يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ" [2]، وفي قول الشاعر [1] :

---

* مداخلة بالملتقى المغاربي حول الأقليات الدينية في المغرب من الفتح إلى نهاية العهد العثماني، 5-6 ماي 2003م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.

1 البقرة ، 88.

2 البقرة ، 276.

كلُّ بنى حُرَّةٍ مَصيرُهُمْ قُلٌّ وإن أَكْثَرَتْ من العَدَدْ

وفي الاصطلاح لم يستخدم هذا اللفظ أو المصطلح في التراث العربي الإسلامي إلا حديثا، فهو مصطلح وافد من المفاهيم الغربية في العصر الحديث مُحَمَّلٌ بالمعاني (العنصرية، الأثنية، العرقية) التي ارتبط بها في الثقافة العربية، كما يقول محمد عمارة [2].

فالأقلية (الإثنية) بهذا المفهوم العربي ليست مجرد أقلية عددية، ولا هي بالأقلية السياسية، وإنما هي أقلية لها:" هوية ثقافية مختلفة عن الهوية الثقافية لأغلبية المجتمع الذي تعيش فيه[3].

وانطلاقا من هذا يمكن أن نفهم بأن العرب المسلمين لم يستخدموا هذا المصطلح لأن الأقليات الدينية أو العرقية، أو المذهبية كانت تشترك مع الأغلبية في الهوية الثقافية، والتاريخ، واللغة، وقوانين الشريعة الإسلامية التي تنظم العلاقات الاجتماعية في الدولة الإسلامية، ولذلك فما يسمى بالأقليات في دولة الإسلام وحضارته هي في الحقيقة جماعات ، أو مجتمعات كما سماها أبو عبيد البكري ونقل عنه ياقوت الحموي عندما تحدث عن الواصلية في تاهرت" أو المعتزلة في الدولة الرستمية "مجمع" و" قوم "[4] وهي فرق وأحزاب متميزة فكريا، وعدديا بالضبط كما نراه اليوم من تيارات سياسية لها طروحات خاصة أو أيديولوجيات (نظام أو نسق فكري) تستظل كلها بظلال الدولة الإسلامية حتى وإن كانت منطلقاتها من أفكار دينية واجتماعية فإن المسار والهدف سياسي.

وأهل الذمة في الإسلام لم يعدوا أقلية بل أهل عهد وعقد باعتبار الذمة عهد وأمان [5]، فالمجتمع في دولة الإسلام يضم فئات مختلفة من الناس يربطهم عقد، أو عهد

---

1 ابن منظور ، لسان العرب، تعليق علي شيري، بيروت:دار أحياء التراث العربي،1988/1408، 11 / 278.

2 الإسلام والأقليات، الماضي والحاضر والمستقبل، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2003/1423، ص، 7.

3 محمد عمارة ، نفسه، 7.

4 المغرب في ذكرى بلاد أفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، بغداد : مكتبة المثنى، ص، 67 ، 72 ياقوت الحموي، معجم البلدان ، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1984/1404 ، ص، 8 .

5 ابن منظور، لسان العرب، 58/5.

فيه تتساوى الواجبات والحقوق، ومادون ذلك فهو خاضع لحكم القرآن: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" [1]، وقد جاء في معاهدة الرسول ﷺ بالمدينة : " وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين مادامو محاربين؛ وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لايوتغ (يهلك)"[2]، وفي هذا السياق قال ﷺ : " الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيُرَدُّ عَلَى أَقْصَاهُمْ " [3].

إن إطلاق اسم الأقليات ـــ من منظور الحضارة الإسلامية ـــ على فئة اجتماعية يعتبر إسقاط قهري على نظام اجتماعي وثقافي يختلف كله عن النظام الغربي الذي يعود إليه استعمال هذا المصطلح .

ومن هنا فإن تراثنا الحضاري التاريخي واللغوي لم يعرف استخدام مصطلح "الأقلية " إلا بمعناه اللغوي أي الأقلية العددية والأكثرية العددية [4] ، وقد تحدث القرآن في أكثر من مناسبة عن العدد هذا فقال تعالى:" فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ"[5] وقال :" وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ " [6].

وعليه فإني اعتقد أن إطلاق اسم الأقليات في دولة الإسلام وحضارته فيه كثير من اللبس بل كثير من التحريف التاريخي، والفكري ، والسياسي، وفي هذا السياق تأتي دراستي التي سأبحث فيها موضوعا يخص وجود أقلية مذهبية وعقدية (الأحناف،

---

1 الكافرون ، 6.

2 ابن هشام، السيرة النبوية ، تحقيق ، مصطفى السّقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي ، بيروت: دار أحياء التراث العربي، 149/2.

3 سنن ابن ماجة ، الديات، 2673 ، سنن أبي داود، الجهاد، 2371 ، مسند أحمد ، مسند المكثرين من الصحابة، 2506.

4 محمد عمارة ، مرجع سابق، 8.

5 الحديد ،16.

6 سبأ ، 13.

والمعتزلة) ببلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين.

جماعات الأحناف والمعتزلة

لقد عرفت بلاد المغرب آراء المذاهب والفرق الإسلامية خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة (الحنفية، والمالكية، والشافعية، والظاهرية، والثورية، والخوارج الإباضية، والصفرية، والمعتزلة، والمرجئة، و الشيعية العلوية والإثنى عشرية، والإسماعيلية)، ومعظمها لم تنتشر آراؤها إلا على نطاق ضيق، وتفاوت في عدد معتنقيها، ويعود ذلك أساسا إلى الاختلاف في الأهداف السياسية المبتغاة، ومن هذا الكم اخترت الحديث عن جماعات الأحناف والمعتزلة لاعتبارات ثلاثة:

أولها اشتراكهما في استخدام العقل .

والثاني اعتمادهما الفكر الفلسفي.

والثالث ارتباطهما بالسلطة السياسية .

لقد تركزت مجموعات الأحناف والمعتزلة في حواضر المغرب وبعض مناطقه لاسيما القيروان، وتاهرت[1]، ويبدو أن وجودهم في الإمارة الرستمية يعود بالأساس إلى عاملي التجارة، وطبيعة النظام الشوري، كما وجدوا في منطقة الزاب إذ تخبرنا المصادر أن أهل تهوذة تمذهبوا بمذهب الأحناف، وانتشر بينهم الفكر الاعتزالي[2]، كما وجدت مجموعات أخرى في المغرب الأقصى يظهر أن رجالها أرسلوا خصيصا لنشر تعاليم

---

1 أبو زكرياء يحي بن أبي بكر ، كتاب سير الأئمة، تحقيق اسماعيل العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1984)، 99 .الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة، مطبعة البعث ، 1/ 84 ، الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد ، كتاب السير، قسنطينة، طبعة حجرية 1883، وكذلك مخطوطة مصورة، 262 .

2 البكري أبو عبيد ، المصدر السابق، 73 .

المذهب خاصة في الحاضرة فاس[1]، وفي الأندلس اقتصر وجودهم على عدد من الفقهاء والتجار قلدهم قلة من الناس هناك[2]، ويبدو أنهم كانوا أغلبية في جزيرة صقلية لسببين الأول الجند الذي شارك في فتحها، والثاني هجرة العراقيين إليها.

ويبدو أن عددا كبيرا من هؤلاء جاء من المشرق لاسيما العراق، إذ كانوا يدعون من المالكيين خاصة بالعراقيين، وبالكوفيين معتبرين إياهم أجانب، وبعضهم كان حرفيا، والبعض الآخر من العلماء ، والرحالة، والجنود والمعارضين السياسيين، والمغامرين بالإضافة إلى عدد ممن تمذهب بمذهبهم، أو اقتنع بعقيدتهم من المغاربة لكنهم على العموم شكلوا صفوة المجتمع تمتلك المال، والعلم: والنفوذ .

الدور الاجتماعي والثقافي لجماعات الأحناف والمعتزلة

لا ريب أن الهدف الأساسي لهذه المجموعة كان سياسيا، وللوصول إلى تحقيقة وإعطاء فعالية لنشاطها، وتدعيم نفوذها في دواليب الحكم، وفي مراكز صنع القرار حيث كانت أحكام فقهاء الأحناف تساير التطور الحضاري للدولة والمجتمع لاسيما باستخدامهم القياس يعضدهم الفكر الاعتزالي ــ باعتبار أن المجموعة واحدة مذهبيا وعقديا في اعتقادي ــ في وسط يغلب عليه التمسك الشديد بالنص والتقليد، ويتجنب االفلسفة ومناهجها.

الدور الاقتصادي والاجتماعي

لقد ظهر دور هذه المجموعات من خلال تدخل فقهائها في تقنينهم للحياة الاقتصادية في المجالات الزراعية والصناعية والتجارية، أو في فرض هذا التقنين، ومن خلال نشاط رجالهم لاسيما في الحرف والتجارة .

---

1 القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت: دار مكتبة الحياة، 54/1/1، ابن فرحون اليعمري، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق مأمون بن محي الدين الجنان، بيروت : دار الكتب العلمية، 1996/1417، 47.

2 المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط، 2 ، ليدن، بريل ، 1976، 337.

ففي المجال الفلاحي يبدو أنهم قاموا بدور فعال في الترويج للإصلاح الزراعي الذي بدأ تطبيقه في انحاء الخلافة العباسية في عهد الخليفة المنصور (136 ــ 754/158 ــ 775)، وذلك باستبدال نظام المساحة الذي أقر منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنظام المقاسمة[1]، ولأسباب سياسية، ولتنفيذ هذا الإصلاح عين الإمام سحنون المالكي وهو على ولاية القضاء بالقيروان سليمان بن عمرا الحنفي[2] على قضاء باجة والأربس وهما إقليمان زراعيان هامان لاسيما في إنتاج الحبوب[3]، ــ الغذاء الأساسي لسكان بلاد المغرب ــ ليتولى الإشراف على تحقيق الإصلاح والإقلاع الاقتصادي بضبط الأمور الشرعية التي تحكم هذا المجال، وتنظيم العلاقات الاجتماعية في عالم الريف، وهو كذلك ما ترجمه أبو المهلب هيثم الحنفي (ت 888/275) في مؤلفه " أدب القاضي والقضاء" حيث يبين من خلال الأحكام والتشريعات مدى تطور حرفتي الزراعة وتربية المواشي ورعيها في بلاد المغرب.

كما قامت مجموعات رحال الأحناف والمعتزلة لاسيما الذين جاءوا من العراق خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين من إدخال ونشر تقنيات بعض الصناعات كالطلاء والأدوية والعقاقير والكاغط نذكر منهم : إبراهيم بن سالم الوراق الإفريقي الذي عاش في العهد الأغلبي، ومحمد بن يوسف الوراق الذي انتقل إلى الأندلس،

---

1 نظام المساحة هو تعيين خراجا على مساحة محدودة كل عام دون النظر إلى حالة المحصول، وأسلوب الإنتاج ووسائله، أما نظام المقاسمة فالدولة تقاسم المالك أي المزارع المحصول بنسبة معينة دون النظر إلى مساحة الأرض . أنظر، أبو يوسف القاضي ، كتاب الخراج ، بيروت : دار المعرفة ص،43 ، الماوردي، الأحكام السلطانية، الجزائر: د، م، ج ،1983، ص،439 . حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي في العصر الوسيط، القاهرة : دار الفكر العربي، ص، 189 .

2 ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س . كولان، و ، أ. ليفي بروفنسال ط، 3، بيروت : دار الثقافة، 1983، 199/1، الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق، محمد ماضور، القاهرة: مكتبة الخانجي، تونس: المكتبة العتيقة ، 1978 ، 151/3.

3 كان سليمان هذا كاتبا لسحنون، أنظر في شأنه: عياض، المرجع السابق، 595/2.

كما أسهم عدد آخر في تطوير العمارة لاسيما إدخال الزخرفة العراقية[1]، ومن المعلوم أن جل هؤلاء منهم الفقهاء والمفكرين، كانوا يشتغلون بالتجارة، ولهم حوانيت، ويتولون ولاية الأسواق كسعيد بن محمد بن أسلم ، وأبو عمرو ميمون المعروف بابن المعلوف الحنفي الذي كان يلزم سوق القيروان، إضافة إلى القضاة كحماس بن مروان بن سماك الهمذاني (ت 915/303)[2].

وبذلك تمكنت مجموعات الأحناف و المعتزلة من أن يؤثروا في تطور بعض المجالات كتطور نمط معيشة المرأة، وترسيخ بعض التقاليد في اللباس والاحتفالات، والتعليم إذ تذكر المصادر أن الصقالبة وهم من الرقيق الذي أسلم معظمه، ويبدو أنه كان حنفيا كانت نساؤهم متعلمات، ونقلن العديد من الحرف إلى نساء الحواضر كحرفة الحياكة والطرز، كما نقلوا بعض الفنون كالألحان، والموسيقى، والعزف على الآلات منها العود وبذلك أسهمن في رفع الذوق الجمالي لدى المرأة في بلاد المغرب.

الدور العلمي والثقافي

لقد حاول رجال هذه المجموعات إثبات وجودهم، وإعطاء الشرعية الدينية لآرائهم وأفكارهم ، في وسط أغلبية تؤمن بصرامة التقاليد، وتتمسك بنصية الآراء (المالكية والخوارج: الإباضية خاصة) التي ترى أنها تحصنها من الذوبان والانحلال في آراء الأحناف والمعتزلة، وهو رفض ظاهره ديني يتمثل في رفض المذاهب الأخرى، وباطنه سياسي يتمثل في رفض الهيمنة العباسية ممثلة في الأغالبة ببلاد المغرب.

إن التنافس بين رجال المذاهب الفقهية، والصراع بين رجال الفرق هما سمات هذا العصر لذا نجد مجموع رجال الأحناف والمعتزلة قد بذلوا وسعهم في أن تكون لهم قدم

---

1 الدباغ ، المصدر السابق، 92/2 ، حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، 104/1 ، السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، بيروت : دار النهضة 1981، 410/2 .

2 الخشني، كتاب طبقات علماء إفريقية، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 153، ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط، 1 ، بيروت القاهرة: دار الكتب الإسلامية ، ودار الكتب المصرية، ودار الكتاب اللبناني، 1982/1402 ، 115 ، عياض، المصدر السابق، 600/2/2 ، يحي بن عمر، أحكام السوق، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، ومراجعة فرحات الدشراوي ، تونس: الشركة التونسية للنشر، 1975، 58.

ثابتة في الحياة العلمية والثقافية، فاتخذوا طريق التعليم لهذا التثبيت ففي المرحلة الثانية أو العالية درسوا أمهات كتبهم مثل الخراج لأبي يوسف، إلى جانب اهتمامهم بالمغازي والسير، كما أسهموا في تنظيم التعليم وتطويره فجعلوا الحفظ والتأمل بالليل في حين تتم المناظرات بالنهار، ومن أساتذتهم يحي بن محمد بن قادم الحنفي، وابن الكبر الذي كان يدرس المغازي، وأبا جعفر بن خيرون، وهذه المهمة قاموا بها في معظم حواضر المغرب كالقيروان وتاهرت [1].

وأسهم بعضهم في مجالات علمية أخرى كتفسير القرآن الكريم من هؤلاء أبا الأسود موسى بن عبد الرحمن بن جندب المعروف بابن القطان الحنفي الذي تولى قضاء طرابلس للأغالبة فألف تفسير في مائة وعشرين جزءا في أحكام القرآن[2]، وإبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي الحنفي الذي وضع تفسيرا سماه "سراج الهدى"[3]، وهذه التفاسير يبدو أنها ضاعت، أو لم يكشف عنها بعد، ومن أسباب ذلك الصراع المذهبي، وطمس معالم الآخر مهما كانت قيمتها، وهو ما أضر بالتراث الحضاري للأمة العربية الإسلامية.

أما في الفقه والتشريع فنجد آثار هؤلاء حتى في مؤلفات رجال المالكية فأسد بن الفرات حاول المزاوجة بين الفقهين المالكي والحنفي ، أوتقنين الفقه الحنفي وفق معطيات البيئة المغربية، وذلك من خلال مؤلفه الأسدية التي حقق فيه 36 ألف مسألة، ويظهر أن هذه المسائل هي نفسها التي أخذها الإمام سحنون مجردة من الأحكام ودونها وفق أحكام مالك، وأعاد تدوينها وسماها المدونة و هي التي بين أيدينا اليوم حيث يلمس فيها الباحث والدارس مسحة حنفية، ومن فقائهم الذين تذكر المصادر أن لهم نتاجات علمية لكنها لم تصلنا محمد بن زرزور (ت903/291) ومحمد بن المنيب

---

1 ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر ، وإبراهيم بحاز، الجزائر: مطبعة الفنون المطبعية ، 1986، 32 ، عياض، المصدر السابق، 1/1/ 78 ، ياقوت الحموي، المصدر السابق، 1982 ، 7/2 .

2 الخشني، المصدر السابق، 229 ، الدباغ ، المعالم ، 335/2 ، ابن فرحون ، المصدر السابق، 342.

3 ابن عذاري ، المصدر السابق، 162/1.

الأزدي (ت 293 /905)، وحماس القطان بن مروان (ت 915/303)، وأحمد بن عبد الرحمن اللخمي (ت920/308) وغيرهم[1] .

كما لمعت أسماء أخرى في مجالات علوم النحو واللغة كعياض بن عوانة بن الحكم، والمؤدب أبو السميدع النحوي(ت909/297)، ومحمد بن قدامة البلوطي (ت 912/300)، وعبد الله محمود المكفوف النحوي (ت 920/308)، وفي علوم الطب والحساب كإسحاق بن عمران البغدادي الذي أشتهر بصناعة الأدوية وله مؤلفات منها : نزهة النفس والمالنخوليا، والفصد والنبض[2]، و لم تتعرض المصادر إلى جهودهم في مجالات التاريخ، ، والجغرافيا، والفلسفة وعلم الكلام إلا نادرا لاسيما كتب الطبقات .

وأهم ما برز فيه الأحناف والمعتزلة هو الجدل والمناظرة حيث كانوا قد اشتهروا بالرأي وحب الجدل والنقاش، وأفرد لهم الخشني بابا عنوانه (أهل المناظرة والجدل من طبقة العراقيين)[3]، وكذلك (من أنتحل المناظرة وتحلى بالجدل من أهل السنة)، وكانت لبعضهم مجالس خاصة تعقد لهذا الغرض كسقيفة العراقي التي كانت تعقد بها حلقات يتناظر الناس فيها في القدر[4]، وعندما أصبح الاعتزال العقيدة الرسمية للدولة العباسية أيام المعتصم والواثق أخذ الأغالبة أمراء إفريقية الناس بالقوة على اعتناق الاعتزال والقول بخلق القرآن وامتحنوا به امتحانا عسيرا[5]، ومن المعتزلة الأحناف الذين قالوا بخلق القرآن أبو الفضل المعروف بابن ظفر، ومحمد الكلاعي، كما دفعوا برجال المالكية إلى تبني الجدل والمناظرة، ومنهج الكلام في الدفاع عن مذهبهم

---

1 أبو الوفاء، الجواهر المضيئة، 754/2، ابن عذاري، المصدر السابق،136/1، 185 ، الدباغ ، المصدر السابق، 2104.

2 الزبيدي،: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة : دار المعارف، 1973، 227 ، 236، السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، بيروت: المكتبة العصرية ، 230/1.

3 طبقات ،219.

4 هويدي يحي: تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، 1966، 150/1.

5 الدباغ، المعالم، 22/1

وفي الختام

نرى أن هذه الأقلية المذهبية والعقدية كانت إحدى المجموعات المتناسقة للأمة الإسلامية ، وأحد العناصر الفاعلة في الحياة الاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب حيث تمكنت بفضل العلم وامتلاكها للثروة من كسب نفوذ قوي في الدولتين الأغلبية السنية، والخارجية الإباضية الرستمية، وتغلغل عميق في مراكز القرار إذ كان ذلك أحد العوامل الرئيسية في خلق تنافس إيجابي، أدى بالأمة إلى النهوض وتحقيق التقدم الحضاري، والصراع الذي صاحب هذا النهوض ما هو إلى إفراز طبيعي لعملية التقدم والتطور.